﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اتّهامُ يوسفَ في العلَنِ، ورفْضُ خِيانتِه بالغيبِ بإعلانِ براءتِه وهو في السّجن

لمّا قالتِ امرأةُ العزيزِ فيما مضى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]، وكان قد ترجّحَ لدينا من خلال السّياقِ والأدلّةِ الأخرى أنّها أيضًا هي الّتي قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: 52]، قالت بعد ذلك مُكمّلةً كلامَها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أيْ: أنا مَن أخطأتُ، ويوسفُ صادقٌ، وكان ذلك ممّا زيّنتْهُ لي نفسي الأمّارةُ بالسّوءِ، وأقولُ ذلك: اعترافًا، وتبرئةً ليوسفَ عليه السلام، وإعلامًا للعزيز بأنّي ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: 52]، فلم يَحدُثْ أكثرُ من أنّني قد هممتُ، فواجهتُ إباءَ هذا المُستَعصِم، الّذي لم أخُنْه أيضًا بالغيب، وهو في سجنِه، بعد أن كذبتُ في اتّهامِه، قبلَ أن يدخلَ السّجنَ، لترميم صورةِ امرأةِ العزيز، وإسكاتِ الألسنةِ الّتي تلوكُ أمْرَ عِشْقِها لفتاها، الّذي بلغَ بها حدَّ الشّغفِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُبَرِّئُ﴾: فعلٌ مضارعٌ مادَّتُه (برأ)، وهي تدلُّ على التَّباعُدِ منَ الشَّيْءِ وَمُزايَلَتِه، من ذَلِكَ البُرْءُ، وهو السَّلامَةُ منَ السُّقْمِ، وفيه لغتان، إذ يُقالُ: بَرِئْتُ وَبَرَأْتُ، وبَرَأتُ منَ المَرَضِ أبْرُؤُ بُروءًا، وبَرَأتُ أبْرَأُ بَرْءًا، وَمِنْ ذلك البَراءَةُ منَ العَيْبِ والمَكْروهِ[1]، "قال اللّحيانيُّ: يقول أهلُ الحجازِ: برأتُ منَ المرض أبرؤ بُروءًا. وأهلُ العالية

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).

يقولون: برأتُ أبرأ برءًا. ومن ذلك قولُهم: برئتُ إليك من حقّك. وأهلُ الحجاز يقولون: أنا بَراءٌ منك، وغيرُهم يقول: أنا بريءٌ منك، قال الله تعالى في لغة أهل الحجاز: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾ [الزّخرف: 26]، وفي غير موضعٍ منَ القرآن: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ [الأنعام: 78]"[1]، ومعنى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾: وما أُنَزِّهُها[2].

2) ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾: أصلُ مادَّة الكلمة: (نفس)[3]، والنَّفْسُ: الرّوحُ الذّي به حياةُ الجسد، وكلُّ إنسانٍ نَفْسٌ حتّى آدمُ عليه السلام. وكلُّ شيءٍ بعينِه نَفْسٌ. وجمْعُها: نفوسٌ[4]، يُقال: خرجتْ نَفْسُه، والنَّفْسُ: عينُ الشّيء وذاتُه[5]، "النّفسُ فيه معنى جملة الشّيء وحقيقتِه، تقول: قتل فلانٌ نفسَه، وأهلَكَ نفسه؛ أيْ: أوقع الإهلاكَ بذاته كلِّها، والجمْعُ من كلّ ذلك أنفُسٌ ونفوسٌ، وقولُه تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ [المائدة: 116]؛ أيْ: تعلمُ ما أُضْمِرُ، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: 116][6]؛ أيْ: لا أعلمُ ما في حقيقتِك، ولا ما عندك عِلمُه بالتّأويل، تعلمُ ما أعلمُ ولا أعلمُ ما تعلمُ"، والرّوحُ والنَّفسُ بمعنًى واحدٍ عند العرب، إلا أنَّ الرّوحَ مذكرٌ، والنَّفسَ مؤنثٌ[7].

3) ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: السُّوءُ نعتٌ لكلِّ شَيءٍ رديءٍ، وساءَ الشَّيءُ: قَبُحَ، فَهو سيّئٌ، والسّوءُ: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ[8]، وتقولُ: هذا رَجُلُ سَوْءٍ بالإضافةِ، ثُمّ تُدْخِلُ عليه الألفَ واللّامَ، فتقولُ: هذا رَجُلُ السَّوْءِ[9]، قال الشّاعر:

وَكُنْتُ كَذِئْبِ السَّوْءِ لَمّا رَأى دَمًا *** بِصاحِبِهِ يَوْمًا أحالَ على الدَّمِ[10]

والسّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ منَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ومنَ الأحوالِ النَّفسيّةِ والبدَنيّةِ والخارجيّةِ، من فَواتِ مالٍ وجاهٍ وفقدِ حميمٍ[11]، والمعنى المِحوريُّ الّذي يدورُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).
(2) الكَفَويّ، الكُليّات، ص: 34.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(4) الخليل، العين: (نفس).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس).
(6) ابن سِيدَه، المُحكم: (نفس).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (روح).
(8) الخليل، العين: (سوأ)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(9) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سوأ).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس) و(سوأ).
(11) الرّاغب، المفردات: (سوأ).

حولَه لفظُ السّوءِ: عيبٌ أو نقصٌ، قُبْحٌ أو فسادٌ أو مرضٌ يخالطُ ظاهرَ الشَّيءِ أو باطنَه، ثُمَّ يُنْقَلُ السّوءُ إلى القُبْحِ المعنويِّ، كالسَّيِّئة: الذَّنْبُ والخطيئةُ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ليسَ للمَرْءِ تزكيةُ نَفْسِهِ، والاعترافُ بالذّنبِ مَسْلكٌ للتّوبةِ مَكِينٌ

ثُمَّ قالتِ امرأةُ العزيز: وما أُنَزِّهُ نفسي عن إرادةِ السّوءِ، وما أردتُ بذلك تزكيةَ نفسي؛ لأنَّ شأنَ النَّفس البشريّةِ كثرةُ الأمرِ بالسّوءِ، لِمَيْلِها إلى ما تشتهيه، وصعوبةِ كَفِّها عنه، إلّا ما رَحِمَهُ اللّه من تلك النُّفوسِ، فَعَصَمَها منَ الأمرِ بالسّوءِ، إنَّ رَبّي غفورٌ لِمَنْ تابَ من عِبادِه، رحيمٌ بهم[2]، والمعنى: "لم أقصدْ بالبراءة عمّا تقدّم مجرّدَ التّزكيةِ للنّفس، وعلّلَ عدَمَ التّبرئةِ بقوله مؤكِّدًا لِمَا لأكثر النّاس منَ الإنكار، أو لأنّ اتّباعَهم لأهويّتِهم فعلُ مَن يُنكرُ فعلَ الأمّارةِ"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواو في السّياقِ:

القولُ في معنى حـزفِ المعنى، يعتمدُ على تحديدِ القائلِ

(الواو) في مطلعِ الآية يُحتملُ أن تكونَ العاطفةَ، بأن تكونَ قد عطفتْ قولَه تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ [يوسف: 52]، وسيأتي توجيهُ المعنى بناءً على تحديد القائلِ، هل هو يوسفُ عليه السلام أو امرأةُ العزيز؟ وعلى كونِها عاطفةً، تكونُ الجملةُ موصولةً بما قبلَها. وقيل: هي واوُ الاستئنافِ، والجملةُ بعدَها ابتدائيّةٌ[4]؛ وعليه فهي مفصولةٌ عمّا قبلَها.

معنى (ما) ودَلالةُ النّفْيِ بها:

(ما) نافيةٌ، وهي تَـدلُّ عـلى نفْيِ الحالِ

فائدةُ التّعبيرِ بها هنا، الدّلالةُ على أنّ اتّهام النّفسِ بعدمِ البراءة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/142، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/129.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/5.

لا يزالُ، "وهي هنا تُؤكّدُ القولَ بأنّها مُتّهَمةٌ، وأنّها لا تجدُ ما تُبرّئُ به نفسَها من هذا الذّنب الّذي ارتكبَتْه في حقّ يوسفَ.. إنّها قد ضعُفتْ أمامَ نفسِها التّي الّتي سوّلت لها هذا المُنكَرَ.. وإنّها ليست إلّا بشرًا، من شأنِها أن تخطىء تُخطئَ وتَأثمَ، وأنّها ليست في عِصمةٍ منَ الخطأ"[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿أُبَرِّئُ﴾:

نَـفْـيُ تَـبرئـةِ الـنّـفـسِ من تُـهـمـتِـهـا في الـحـالِ، ومع تجدُّدِ الدّواعي

يدلُّ التّعبيرُ بالمضارعِ على حالِ المُتكلّمِ وقتَ الخطابِ، وأنّ نفْيَ تبرئةِ النّفس حاصلٌ في الحال، وأنّ المتكلّمَ يُجدّدُه كلّما دعا إلى ذلك داعٍ منَ النّفسِ، سَعيًا إلى تبرئتِها ممّا هو مُلتبِسٌ بها من منازعةِ صاحبِها الهوى، والعملِ على دفعِه إليه، وبحسبِ القائلِ يتوجّهُ الكلامُ: فإن كان هذا من قول امرأةِ العزيز، كما يدلُّ عليه تناسقُ السّياقِ؛ فهو يدلُّ على أنّ اتّهامَها لنفسها بعدمِ البراءة لا يزالُ قائمًا وقتَ الخطابِ، وأنّ نفسَها لا تزالُ تُزيّنُ لها السّوءَ وتأمرُها به، وأنّ داعيَ الهوى يُنازعُها ويدفعُها إلى العملِ على بلوغِ ما كانت تُريدُه من يوسفَ ﷺ، وهو ما يدلُّ عليه إصرارُها، حين قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]. وإن كان من كلامِه ﷺ، فالمرادُ بهذا الاتهّام – وهو نفيُ تبرئةِ نفسِه – تجنُّبُ ما يَعتري النّفسَ من غرورٍ وزَهْوٍ، حالَ تغلُّبِها على هواها في واقعةٍ ما، والأصلُ أن تَعْزوَ هذا إلى توفيق اللّه، ومحْضِ فضلِه، فعلى هذا الوجهِ قال ﷺ ما قال "هضمًا لنفسِه الكريمةِ البريئةِ، عن كلّ سوءٍ، ورَبْأً بمكانِها عنِ التّزكيةِ والإعجابِ بحالِها، عند ظهورِ كمالِ نزاهتِها؛ أيْ: لا أُنزّهُها عنِ السّوءِ من حيث هي، ولا أُسندُ هذه الفضيلةَ إليها، بمقتضى طبْعِها من غير توفيقٍ منَ اللّه عزَّ وعلا"[2].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن، ص: 7/3.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285.

دَلالةُ آراءِ المُفسّرين في تحديدِ القائلِ في السّياق:

بيانُ ترتيبِ الكلامِ ودَلالةِ السّياقِ على ترجيحِ كونِه من كلامِ امرأة العزيزِ

اختلف المُفسّرون في تعْيين قائلِ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾، على قولَيْن:

الأوّل: أنّه من كلام يوسفَ ﷺ. والمعنى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ منَ الزّللِ، وما أَشهدُ لها بالبراءةِ الكُليّةِ ولا أزكّيها. وهذا يعني أن تكونَ تُهمتُه لنفسِه محصورةً في مَيلِ النّفسِ عن طريق الشّهوةِ البشريّةِ، لا عن طريقِ القصْدِ والعزمِ[1].

الثّاني: أنّه من كلام امرأةِ العزيز. والمعنى: ولستُ أُبرّئُ نفسي، فإنّ النّفسَ تتحدّثُ وتتمنّى؛ ولهذا راودتُه[2]. ودَلالةُ السّياق تُرجّحُ أنّ القولَ لامرأة العزيز، لا ليوسفَ ﷺ: وذلك أنّ الآيةَ واردةٌ في سياق كلامِ هذه المرأة في حضرة المَلك، إذْ سأل النّسوةَ عن يوسفَ ﷺ فبرّأْنَه، وعندها اعترفتِ امرأةُ العزيز كذلك ببراءتِه، وهو الحِوارُ المحكيُّ في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: 51 - 52]، وبعدها جاءتِ الآيةُ موصولةً بهذا الكلام، ولم تخرجْ عنِ السّياق: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾. فيُلحظُ أنّ الكلامَ مُترابطٌ، وأنّ النّصَّ متماسكٌ، والحِوارُ موصولٌ بعضُه ببعض، وأنّه جميعَه من كلام مُتحدّثٍ واحدٍ هو امرأةُ العزيز؛ لأنّ ما سبقَه من كلام بدْءًا من: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: 51] هو من كلامِها قَطعًا، وهو مسبوقٌ بما يقطعُ بذلك، وهو قولُه سُبحانه: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: 51]، وعلى هذا فإنَّ "ظاهرَ ترتيبِ الكلام، أنّ هذا من كلام امرأةِ العزيزِ، وأنّها مضتْ في بقيّة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/480، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل 3/167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/394.

إقرارِها، فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ وذلك كالاحتراسِ ممّا يَقْتضيه قولُها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: 52] من أنَّ تبرئة نفسها من هذا الذّنب العظيم، ادّعاء بأنّ نفسها بريئة براءةً عامّةً، فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾؛ أيْ: ما أُبرّئُ نفسي من مُحاولةِ هذا الإثم"[1]. وممّا يَدعمُ القولَ بذلك أيضًا ويُضعِّفُ أنّه من كلام يوسفَ ﷺ: أنّه لم يَرِدْ له ﷺ ذِكْرٌ في هذا الحوارِ؛ لأنّه لم يكن موجودًا فيه، بل كان لا يزالُ داخلَ السّجن، ولا ريْبَ أنّ حصولَ ذلك في غيْبته، دليلٌ على سُموِّ أخلاقِه، ونُبْلِ سُمْعَته، وطهارته من أدران النّفسِ ودَواعي الهوى الّتي لا يَسْلمُ منها أحدٌ من غيرِ المَعْصومين منَ البشر، حيث تَتيهُ بهم نوازعُ النّفوس، فيَسقُطون في حَمْأةِ الرّذيلةِ، ويَتهافَتون على المَعاصي، كما يتهافتُ الفراشُ المبثوثُ على الشُّعاعِ البرّاقِ، الصّادرِ من نار الإحراقِ، فما يلبثُ أن تَخبو جَذوتُه وأن يتلاشى، وحتّى يكونَ ذلك من كلامه ﷺ، كان "يُحتاجُ فيه إلى أن يرجع الرّسولُ من ذلك المجلسِ – أي مجلسِ الملك مع النّسوة – إلى السّجنِ ويذكرَ له ﷺ تلك الحكايةَ، ثمّ إنّ يوسفَ يقول ابتداءً: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: 52]، ومثلُ هذا الوصلِ بين الكلامَيْن الأجنبيَّيْن، ما جاء البتّةَ في نثرٍ ولا نظم، فعلِمْنا أنّ هذا من تمام كلام المرأة"[2]، وهذا هو المُتبادرُ من نظْم الآيتَيْن المناسبِ للمَقام بغير تكلّفٍ[3]، وهذا القولُ هو الأشهرُ والأليَقُ، والأنسبُ بسياق القصّة، ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوَرديُّ في تفسيره، وانتَدبَ لنَصْره الإمامُ العلّامةُ ابن تيميّة، رحمه الله، فأفرده بتصنيفٍ على حِدَةٍ[4].

إزالةُ حيرةِ السُّؤالِ عن سِرِّ الوقوعِ في الذّنبِ مع العلْمِ بعاقبَتِه

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾:

سِرُّ فصلِ جملة: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ عمّا قبلها، هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/5.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/469.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/267.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/395.

كونُها معلِّلةً[1] لحُكم الجملةِ السّابقةِ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾؛ لأنّ ﴿ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، وذلك أنّ قولَه تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أورثَ المخاطَبَ حَيْرةً، فكيف لا يُنزِّهُ نفسَه مع كونِها مطمئنّةً زكيَّةً؟ فأزال حيرتَه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ﴾، في جميع الأشخاصِ ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ إلّا المعصومَ[2]. ولو حملنا الجملةَ على هذا السّؤال المُقدّرِ، وأنّها جوابٌ عنه، يكونُ سرُّ الفصل هو (شبهُ كمالِ الاتّصال)، أو ما يُسمّى (الاستئنافَ البيانيَّ).

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ:

أهمّيّةُ المؤكَّدِ عليه في تَوجيهِ المعنَى وتَرْسِيتِه في السّياقِ

اشتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، على جملةٍ منَ المؤكِّدات؛ هي: أوّلًا: اسْميّةُ الجملةِ وتصديرُها بـ (إنّ) التّوكيديّةِ، وثانيًا: تعريفُ اسْمِ (إنّ)، وهو ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ ودلالتُه على الجنس، وهو من صِيَغ العمومِ، وثالثًا: دخولُ لام التّأكيدِ على الخبرِ ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾، ورابعًا: التّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾؛ أيْ: كثيرةُ الأمر بالسّوءِ، و(أل) في ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ للجنْسِ كذلك؛ أيْ: إنّ النّفسَ لكثيرةُ الأمر بالسّوءِ؛ أيْ: بجنْسِه، والمُرادُ أنّها كثيرةُ المَيْلِ إلى الشّهواتِ، مُستعملةٌ في تحصيلِها القُوى والآلاتِ[3].

وتَوالي المُؤكِّدات وتسلُّطُها على مؤكَّدٍ واحدٍ دليلٌ على الأهمّيّة. فكونُ النّفس أمّارةً بالسّوء، أمرٌ يستدْعي مواجهتَها ومجاهدتَها، وألّا يسيرَ صاحبُها على هواها، إذا أمرتْ بسوءٍ. ولا تعني الجملةُ بحالٍ تلمُّسَ العُذرِ لمَن يقعُ في شَراكها، أو يضعفُ أمام إغراءاتِها؛ لأنّ المطلوبَ منَ المُكلَّف مقاومةُ دَواعيها، وحمْلُها على الطّاعةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/5.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 2/406.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/4.

معنَى(أل) في: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾:

(أل) في ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ للجنْسِ كذلك؛ أيْ: إنّ النّفسَ لكثيرةُ الأمرِ بالسّوءِ؛ أيْ: بجنْسِه، والمرادُ أنّها كثيرةُ المَيلِ إلى الشّهواتِ، مُستعملةٌ في تحصيلِها القُوَى والآلاتِ[1].

النّفسُ مَيّالةٌ للسّوءِ، بحُكْمِ الطّبْعِ والغَريزَةِ

بَلاغةُ التّشْبيهِ في: ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، تشبيهٌ بليغٌ، ففيه تشبيهُ النّفس بمَيلِها إلى الشّهوات، بالآمرِ بها عن طريق القولِ[2]، فحُذفت أداةُ التّشبيه ووجْهُ الشّبه، وبقي رُكنا التّشبيه الأصليّان: المُشبّهُ، والمُشبّهُ به، وهذا التّشبيهُ في غاية الرّوعةِ والجمالِ، فقد ألصقَ وصْفَ (الأمّارة) بالنّفسِ البشريّةِ التّوّاقةِ إلى المُتعةِ العاجلةِ، حيث تَنطمسُ البصائرُ، وتَنحجبُ المصائرُ، فلا ترى النّفسُ البشريّةُ منَ المعاصي، إلّا بريقَها الخُلَّب، فلذلك تجدُها لا تَعبأُ بالألم، ولا تلتفتُ إلى سوءِ العُقبَى، من ذلك الّذي حذّرتْ منه الشّرائعُ، وأكّدتْه دعواتُ الأنبياء الّتي أبانوا فيها عنِ البلاغ النّافعِ، والمسلكِ الضّارِّ، ممّا يكونُ فيه الاتّباعُ والارتداعُ، سببًا في تحصين النُّفوسِ من مغبّة ذلك وفِتنتِه.

النّفسُ البشريّة دأبُـها الأمـرُ بالسّوء، لا تَفتأُ عنه، ولا تَفْترُ بحالٍ

دَلالةُ الاستثناءِ في: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾:

الأوّلُ: أن يكون مُنقطعًا، وهو قولُ الجمهور وهو الأرجحُ[3] على معنى: ولكنّ (رحمة ربّي) هي الّتي تصرفُ الإساءةَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [يس: 43 - 44]، وقوله: ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً﴾ [الإسراء: 86 - 87][4].

المعاني المَحمولُ عليها الاستثناءُ تُحدِّدُ نوعَه وأهمّيّتَه

الثّاني: أنّه مُتّصل، والمُستثنى منه هو الضّمير المُستكنُّ في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/4.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/357.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز 3/253، والخطيب وآخران، التّفصيل: 7/10.
(4) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/601، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/286.

﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾، كأنّه قيل: إنّ النّفس لأمّارة بالسّوءِ إلّا نَفْسًا رحمها ربّي، فيكونُ أراد بالنّفس الجنسَ، فلذلك ساغ الاستثناءُ منها، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: 2 - 3] وفيه نظرٌ من حيث إيقاعُ (ما) على مَنْ يَعْقِلُ، والمشهورُ خِلافُه[1]. ويجوزُ أن يكونَ الاستثناءُ من أعمّ الأوقاتِ، على القول بأنّ ﴿مَا﴾ مصدريّةٌ؛ أيْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، في جميع الأوقات إلّا وقتَ رحمةِ ربّي[2]؛ أيْ: رحمتُه بأن يُقيّضَ له ما يصرفُه عن فعلِ السّوء، أو يُقيّضَ حائلًا بينَه وبين فعلِ السّوء[3]، ولم يَسلمْ هذا التّوجيهُ منَ الاعتراض، لأكثرَ من سببٍ[4].

النّفسُ أمّارةٌ بالسّوءِ إلّا النّفسَ المرحومةَ، أوِ النّفسَ المعصومةَ

معنَى ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ موصولةٌ بمعنى: (مَنْ). وقيل: مصدريّةٌ. وسواءٌ أكانت موصولةً أم مصدريّةً، ففي الكلام حذفُ مضافٍ على كلا الوجهَيْن، أمّا على الوجه الأوّل، فتقديرُه: إلّا نفسَ مَن رحم ربّي، فحُذفَ المضافُ.

وأمّا على الثّاني فتقديرُه: إلّا وقتَ رحمة ربّي، والمعنى: أنّ النّفسَ أمّارةٌ بالسّوء في كلّ وقتٍ وأوانٍ، إلّا وقتَ العصمة[5].

رحمةُ اللهِ شاملةٌ للمخلوقاتِ، وقد وسِعتْ كلّ شيءٍ حكمةً وعدلًا

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿رَحِمَ﴾:

حُذفَ مفعولُ ﴿رَحِمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ اختصارًا؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه؛ أيْ: إلّا نفسًا رحمَها اللهُ، ويمكنُ أن يكونَ الحذفُ لعموم رحمةِ اللهِ ﷻ، وكوْنِ الرّحمةِ الإلهيّةِ شاملةً للبَشر كلِّهم، وهو الّذي يرحمُهم بغلبة الإيمانِ على الهوى، والعقلِ على

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/514.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/357.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/5.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/515، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/4.
(5) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/601.

النّزوعِ لمُبتغيات الأنفسِ، ومُتطلّباتِ الغرائزِ الدّنيا، ممّا يَهوي بالإنسان، إلى قاع الهوانِ.

فائدةُ التّعبيرِ بلفْظِ الرّبوبيّةِ، وإضافتِه إلى ضميرِ المتكلّمِ:

التّعبيرُ بالرُّبوبيّةِ أنسبُ لدلالتِه على الإفضالِ بالغُفرانِ والرّحمةِ، في حالٍ تستحقُّ المؤاخذةَ والمعاقبةَ. وإضافتُه إلى ضمير المتكلّم، للتّعلّقِ به سُبحانه واسْتِعطافِه، وهي إضافةُ تشريفٍ، وفيها مزيدٌ منَ الاعتراف بفضلِه في إيقاع العفْوِ عنِ المُذنبِ المُعترفِ بذنبه التّائبِ منه.

سِرُّ إظْهارِ اسْمِ الرَّبِّ في موقعِ الإضْمارِ:

رحمةُ اللهِ تَستَوعِبُ الموجوداتِ، وتَفيضُ بالإنعامِ على كافّةِ المخلوقاتِ

أُظهرَ اسْمُ الرّبّ مع كونِ الأَوْلى إضمارَه، لسبْقِ ذِكْرِه في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾، قصْدًا إلى التّعرّض لعُنوانِ الرُّبوبيّةِ، لتربيةِ مبادئِ المغفرةِ والرّحمةِ[1].

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

بلاغةُ شِبْهِ كمالِ الاتّصالِ، وأثرُها في دَلالةِ السّياقِ

جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هي جملةٌ مفصولةٌ عمّا قبْلَها، على الاستئنافِ البيانيِّ، على كونِها إجابةً عن سؤالٍ مُقدّرٍ: ولماذا يرحمُ اللهُ نفسًا أذنبتْ ثمّ استفاقتْ؟ فكان الجوابُ: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عِلّةُ تَوالي المُؤكّداتِ في الفاصلةِ:

تَوالي المُؤكّداتِ للاعترافِ بفضْلِه سُبحانه واسْتِعطافِه، والإطماعِ في عفْوِه

اشتملَ السّياقُ على جملةٍ منَ المُؤكّدات وهي التّأكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميّةِ، ثمّ التّعبيرُ بالرّبِّ مضافًا إلى ضمير المُتكلّم، واسمُ الرّبِّ إنّما يُعبّرُ به في مقام الامتنانِ والإنعامِ، ثمّ ختْمُ الجملةِ بصِفتيْن جليلتَيْن للّه ﷻ؛ وهما: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي هاتيْن الصِّفتَيْن الجليلتَيْن الدّلالةُ على الثّقةِ في إنعامِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/5.

سُبحانه، وإفضالِه على عبادِه بغُفران الزّلل، والرّحمةِ بالمُذنبِ طالما اعترفَ بذنْبِه واستغفرَ منه، وأخلصَ في التّوبةِ، وقد قال سُبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النّساء: 147]، وقال في الرّجاءِ والإطماعِ في مَغفرتِه وعفوِه: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزّمر: 53].

فائدةُ تذْييلِ الآيةِ بـ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

أَخْلِقْ بمَن يَطرقُ الأبوابَ أن يَلِجَ

فائدةُ تَذْييلِ الآية بهذيْن الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، حثُّ المُقصِّرين على الرّجوعِ والإنابةِ إلى الله تعالى، وإطماعِهم في مغفرتِه ورحمتِه؛ لأنّه سُبحانه موصوفٌ دائمًا بهما، على الوجهِ الأكملِ اللّائقِ به، فما عليكم إلّا طرقُ الباب من خلالِهما، وستُفتحُ لكم كلُّ الأبواب المُفضيةِ إلى مغفرتِه ورحمتِه.

نُكتةُ تقديمِ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ سَلامةٌ والرّحمةُ غنيمةٌ، والسّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمةِ

في سِرِّ تقديمِ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ – وهو كذلك في أكثرِ القرآن – أنّ المغفرةَ هي صَوْنُ العبدِ من أن ينالَه العقابُ، أو يمسَّه العذابُ، مأخوذةٌ من قولِهم: اغْفِرْ ثوبَك في الوعاء، واصبغْ ثوبَك فإنّه أغْفَرُ للوَسَخ[1]، وأمّا الرَّحْمَةُ، فهي رقّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرحوم[2].

وعليه، فالتّرتيبُ بين الصِّفتَيْن في محلِّه، من حيث إنّ تقديمَ ما يفيد الأُولَى، مُقدَّمٌ على ما يُفيدُ الثّانيةَ؛ لأنّ التّخليةَ مُقدّمةٌ على التّحليةِ[3].

فائدةُ صِيَغِ المبالغةِ في الاسمَيْن الجليلَيْن:

بيانُ أنّ المُبالغةَ في صِفاتِ اللهِ، مرجِعُها إلى تعدُّدِ المفعولاتِ، وعظيمِ تأثيرِها

صِياغةُ هذيْن الاسمَيْن الجليلَيْن على طريقة المُبالغةِ راجعةٌ إلى عظيم أمرِهما، وجلالةِ قدْرِهما، وإلى تكرّرِ آثارِ كلِّ صفةٍ منهما مع

(1) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/5.

الفردِ الواحدِ، فهو سُبحانه يغفرُ لعبدِه مرّاتٍ، ويتوبُ عليه مرّاتٍ ويرحمُه مرّاتٍ ومرّاتٍ، فتمتدُّ آثارُ رحمة اللّه بالعبدِ رأسيًّا وأفقيًّا، وهكذا بسائرِ العبادِ.

وممّا وجَّه به العلماءُ مجيءَ صفاتِ اللّه تعالى على جهة المبالغةِ كذلك، أنّها منظورٌ فيها إلى اعتبارِ تعدّدِ المفعولاتِ[1]، ومعنى ذلك أنّ سلطانَ صفاتِ اللّه تعالى، يقعُ على أفرادٍ عَديدين، بل جماعاتٍ مُتعدِّدين في الوقت الواحدِ؛ لأنّه سبحانه عظيمٌ في صفاته[2].

نُكتةُ تنكيرِ الاسمَين الجليلَين ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ الاسمَيْن الجليلَيْن تفخيمًا وتعظيمًا، فهو سُبحانه لكونِه مُتّصِفًا بهاتيْن الصّفتَيْن الجليلتَيْن، فيجبُ عليكم أن تُبادِروا بالرّجوعِ إليه، ليَشملَكم في عموم عفْوِه ومغفرتِه، ولا تتعاظَموا ذنْبًا في جانب عفْوِه؛ لأنّه عظيمُ المغفرة، عظيمُ الرّحمةِ، ولا يَعظُمُ عليه ذنبٌ مهما كبُرَ.

لا تَتَعاظَموا ذنْبًا في جانبِ عفْوِه؛ لأنّـه سُبحانه عظيمُ المغفرةِ والرّحمة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّوءُ والمعْصِيةُ والذّنْبُ والإثمُ والجُرمُ:

السّوءُ في اللّغة: المَكْروه. يُقال: ساءَهُ يَسوؤه، إذا لَقيَ مِنْهُ مَكْروهًا[3]، وقد عُرّف بأنّه:

كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ منَ الأمورِ الدّنيويّةِ والأخرويّةِ، ومنَ الأحوالِ النّفسيّةِ والبدنيّةِ، والخارجةِ من فواتِ مالٍ وجاهٍ، وفقْدِ حميم[4]، والمعصيةُ هي العِصْيانُ. يُقالُ: عَصَى، وهو عاصٍ، والجمعُ: عُصاةٌ وعاصون. والعاصي: الفَصيلُ إذا عَصَى أُمَّهُ في اتِّباعها[5]، وتُعرّفُ

السّـوءُ لفظٌ عامٌّ يَشملُ كلَّ المفرداتِ الدّالّةِ عـلى الـقـبـحِ والمعْصِيةِ

(1) الزّركشيّ، البرهان: 2/508.
(2) الخطيب: مفاتيح التّفسير: 2/751.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 199.
(4) الراغب، المفردات: (سوء).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عَصَوَ).

المعصيةُ اصطلاحًا بأنّها: مُخالفةُ الأمر قصْدًا[1]، والمعنى المِحوريُّ: امتدادُ الشّيءِ في صلابةٍ وغِلَظٍ، بحيث لا يَنثني: كعَرْقوَتَي البئرِ مُمتدّتيْن عَبرَ فَمِه صُلبتيْن، وكالعصا[2]، وكأنّ العاصي هو مَن يكونُ صلبًا في عصيانه صلابةَ العصا ونحوِها. والذَّنْبُ: الجُرْمُ. يُقالُ: أذْنَبَ يُذْنِبُ. والاسْمُ: الذَّنْبُ، وهو مُذْنِبٌ[3]، وعُرِّف الذَّنب بأنّه: ما يتبعهُ الذَّمُّ، أو ما يُتْبَعُ عليه العَبْدُ من قَبيح فعلِه، والأصْلُ في الذَّنْب الرَّذِل من الْفِعْل؛ كالذَّنبِ الَّذي هو أرذلُ ما في صاحبه.

وفُرِّق بينه وبين الإثم، بأنَّ الْإِثْم هو القَبيحُ الَّذي عَلَيْهِ تَبِعةٌ، والذَّنبُ هو القَبيحُ منَ الفِعْل، ولا يُفيدُ معنى التّبعةِ، ولهذا قيل للصَّبيّ: قد أذْنبَ، وَلم يُقل: قد أثِم. ومعلومٌ أنَّ الصّبيَّ لا تَبِعةَ عليه[4]. والإثمُ: هو ما يكونُ عليه تَبِعةٌ منَ الأخطاء كما ذُكر. والجُرْمُ: ما يَنقطعُ به عنِ الواجب، وذلك أنَّ أصلَه في اللُّغَة: القطعُ. وَمِنْه قيل للصِّرام: الجِرام، وهو قطعُ التَّمْر[5].

وبعد استعراضِ مُفرداتِ (السّوءِ والمعصيةِ والذّنبِ والإثمِ والجُرمِ) يظهرُ ما بينَها من تقارُبٍ دَلاليٍّ، كما يظهرُ أنّ لفْظَ السُّوءِ يَشملُها جميعًا، وبذلك يظهرُ أنّه اللّفظُ الأنسبُ للتّعبيرِ في الآيةِ الكريمةِ.

(1) الجرجانيّ، التعّريفات، ص: 222.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1472.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذنب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»